روافد

مجلة المعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنية

العدد : 15، 2010

المحتوى

الدراسات

السيطرة الاستعمارية على زيت الزيتون (الجزء الأوّل) * الموازنات المالية للمخازن العامّة والمستودعات الحقيقية بجهة صفاقس بين 1905 و 1929 *الثقافة في كتابات البشير صفر × الأمير عبد القادر في مذكّرات العسكريين الفرنسيين في الجزائر * حول اغتيال الزعيم فرحات حشاد وكتاب *اليد الحمراء» * قراءة في حوادث أوت-سبتمبر 1917 بين جنود التيرايور» والجالية اليهودية * أسرى الحرب التونسيون أثناء الحرب العالمية الثانية * الماء في السياسة الاستعمارية بتونس * السياحة في تونس زمن الحماية × تونس المعاصرة في مرآة الجامعات الأمريكية

الملف: دستور 1959

تقديم الوثيقة * الولادة العسيرة لدستور غرّة جوان 1959 * حول دور السلطة المؤسسة في ظلّ دستور 1959 * الفكر السياسي والمجلس القومي التأسيسي * الدستور التونسي وعقلية الحزب الواحد وهاجس الإجماع *الرشيد إدريس عضو المجلس القومي التأسيسي.

منابعات

جامعة منوبة

الفهـــــرس

الإفتتاحية..... 7

دراســـات

محمود فروة، مدخل لتفسير آليات السيطرة الاستعمارية على زيت الزيتون "أحد أعظم مكاسب البلاد التونسية" (الجزء الأوّل)..... 11

سمير البرشاني، حصيلة الاستثمارات المالية بالبلاد التونسية : الموازنات المالية للمخازن العامّة والمستودعات الحقيقية بجهة صفاقس نموذجا : 1905-1929..... 55

الطاهر المنّاعي، الثقافة في كتابات البشير صفر : روافدها ومضامينها..... 81

عدنان المنصر، الأمير عبد القادر في مذكرات العسكريين الفرنسيين في الجزائر : المصادر والتمثّلات 103

عادل بن يوسف، حول اغتيال الزعيم فرحات حشّاد وكتاب "اليد الحمراء" لأنطوان ميلرو 129

فتحي العايدي، قراءة في حوادث أوت-سبتمبر 1917 بين جنود"التيرايور" والجالية اليهودية 149

علي آيت ميهوب، أسرى الحرب التونسيون أثناء الحرب العالمية الثانية(*) ... 11

حبيب بلعيد، الماء في السياسة الاستعمارية بتونس : البنية التحتية والتشريع والجمعيات (*) 39

مروان العجيلي، السياحة في تونس زمن الحماية (*) 69

أحمد جدي، تونس المعاصرة في مرآة الجامعات الأمريكية : التشخيص والآفاق (*) 89

الملف : دستور 1959

أحمد جدي، تقديم شهادة الأستاذ مصطفى الفيلالي عضو المجلس القومي التأسيسي 185

الوثيقة : شهادة الأستاذ مصطفى الفيلالي 191

عبد الجليل بوقرّة، الولادة العسيرة لدستور غرّة جوان 1959 199

عبد الرزاق المختار، الدستور المنسي : حول دور السلطة المؤسسة في ظلّ دستور 1959 235

أحمد السوسي، الفكر السياسي والمجلس القومي التأسيسي من خلال التقرير العام حول مشروع دستور غرّة جوان 1959 (*) 115

حفيّظ الطبّابي، الدستور التونسي وعقلية الحزب الواحد وهاجس الإجماع..... 283

عميرة علية الصغيّر، الرشيد إدريس عضو المجلس القومي التأسيسي 305

متابعات

السياحة بالامبراطورية الفرنسية : عرض بشير اليزيدي (*) 101

جربة : الجزيرة السحرية لطفولتي : عرض محمد المريمي(*) 105

بين الأدب والتاريخ : موائد الإنشراح: عرض أحمد جدي 165

في التحرّر الاجتماعي والوطني : عرض أحمد جدي 171

الحركة الوطنية التونسية والمسألة العمالية النقابية 1894-1956 – الجزء الأوّل (1894-1925) : عرض فتحي العايدي 179

---

* انظر القسم الفرنسي

الأمير عبد القادر في مذكرات العسكريين الفرنسيين في الجزائر

المصـــادر والتمثـــلات [1]

عدنان المنصر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة
(جامعة سوسة)

تقديـــم

لا يمكن للباحث في تاريخ الجزائـــر إلا أن يلاحظ الأهميـــة التي حظيت بها شخصيـــة الأمير عبد القادر لدى الكتاب الفرنسيين، فقد حبرت حول سيرة الأمير عشرات الكتب والمقالات، وهو نوع من الأدبيات لا يزال يصدر إلى اليوم. كما كتبت عن الأمير عبد القادر مئات المقالات والكتب الأخرى التي تعرضت بصفة إجمالية لتاريخ الجزائر تحت الإحتلال الفرنسي. وقد فضلنا في هذا البحث أن نعتمد على نوع خاص من المصادر يتمثل في المذكرات المنشورة لبعض الضباط أو الجنود الفرنسيين الذين وجدوا أنفسهم بحكم مشاركتهم في المراحل الأولى من الغزو الفرنسي للجزائر في مواجهة الأمير عبد القادر، فحاولوا من خلال مذكراتهم تقديم صورة عن الأمير تتفق أو تختلف عما تنقله لنا المصادر الأخرى وخاصة منها ما كتبه السياسيون الفرنسيون سواء الذين عايشوا الحرب ضد الأمير أم الذين اطلعوا عليها بصفة غير

---

1) قدم هذا العمل في إطار ملتقى جامعة وهران حول "تراث الأمير عبد القادر بين الخصوصية والعالمية"، وهران 29-30 نوفمبر 2008.

مباشرة. من هنا فإننا سنسعى لتوضيح الصور المتعددة عن الأمير عبد القادر التي نقلتها تلك المذكرات للرأي العام، وهي مذكرات كان كتابها يقدمونها كشهادات عن حرب عايشوها، مستهدفين تخليد دورهم في إخضاع البلاد الجزائرية للسيادة الفرنسية وترسيخ بطولاتهم العسكرية. إن ما يثير الاهتمام في هذه الشهادات هو أنها، بالإضافة إلى عدم اتفاقها على الصورة النموذجية التي نقلوها للرأي العام الفرنسي عن الأمير، تقدم تصورات غير متوقعة أحيانا لعدو لم ينفك يقارع الجيوش الفرنسية طيلة أكثر من خمس عشرة سنة.

1- طبيعة المصادر المعتمدة في البحث

لهذه المصادر إذا طبيعة خصوصية، يختلط فيها الشخصي بالسياسي والأدبي بالعسكري. وقد اعتمدنا في إعداد هذا البحث على ستة مصادر انتقيناها من جملة ما كتبه ونشره العسكريون الفرنسيون عن تجربتهم الجزائرية في بدايات الاحتلال والحرب ضد قوات الأمير عبد القادر. كتبت هذه المصادر إما في شكل رسائل إلى أقارب أو أصدقاء، أو يوميات، أو تأليف لا تعوزه الصبغة الأدبية. من هذا المنطلق فإن أهداف أصحابها من تأليفها اختلفت غالبا باختلاف الشكل الذي اتخذه التأليف. أول هذه المصادر وأكثرها قربا من النموذج العام لكتابات العسكريين هو "رسائل جندي" Lettres d'un soldat [2] الذي احتوى على مراسلات الكولونيل لوسيان **دي مونتانياك** Lucien de Montagnac (1803-1845) والتي صدرت بعد أكثر من أربعين عاما من مقتله في معركة سيدي إبراهيم (23 سبتمبر 1945) على يد قوات الأمير. قام بنشر هذه المراسلات العائلية ابن أخي الكولونيل المذكور تخليدا لذكرى عمه والعائلة، وهو الذي لم يتعد سنه بضع سنوات عندما كانت رسائل الكولونيل ترد على العائلة حيث يذكر ما كانت تحدثه من توتر داخل العائلة باعتبار المعطيات التي كانت تحملها من أرض بعيدة وكذلك باعتبار الجوانب البطولية التي كانت تثير لدى أسرة **دي مونتانياك** الكبيرة الكثير من الإحساس بالفخر. لا يحتوي الكتاب إلا على رسائل **دي مونتانياك** الجزائرية التي كانت في الغالب ردا على رسائل أخرى وردت عليه من أفراد الأسرة، مما يجعلنا نتوقع مضمون رسائل أولئك

---

2) ***Lettres d'un soldat, neuf années de campagnes en Afrique***. Correspondance inédite du colonel de Montagnac, Paris 1885.

من خلال التعليقات التي كان الكولونيل يضمنها رسائله. احتوى الكتاب على مقدمة مطولة حررها ناشره الذي حاول التعريف بشخصية عمه الشهيد وتوضيح الإطار الذي تم فيه تجميع مادة الكتاب، حيث يبدو الناشر شديد الإعجاب ببطولات لم يشهدها وإنما اكتشفها من خلال تلك الرسائل التي كان يتحلق مع بقية أفراد العائلة لسماع مضمونها وهو ما كان يشكل باستمرار، مثلما عبر عن ذلك، حدثا عائليا ممتازا. يمكن القول إذا أن نشر الكتاب مثل استجابة لحالة الإعجاب تلك، وتجسيدا لرغبة في تخليد اسم ضابط من العائلة لم يصل حتما إلى الدرجات العليا في الجيش ولكنه كان مهيأ لذلك حيث لم يمنعه من بلوغها سوى ما هو أكثر مدعاة للفخر لدى أي ضابط: السقوط شهيدا على أرض المعركة دفاعا عن الراية الفرنسية. من جهة أخرى كان **دي مونتانياك**، مثل كل الضباط الذين تداولوا على قيادة الفرق والمجموعات العسكرية منذ عمليات الغزو الأولى، ينتمي إلى وسط أرستقراطي تحتل فيه قيم البطولة العسكرية مكانة رفيعة. فقد كان خريج مدرسة سان سير العسكرية العريقة (1821)، وهو ما أهله لتسلم مناصب قيادية بصفة مبكرة كان آخرها رئاسة موقع "الغزوات" على حدود المغرب، وهو مركز يشكل قيمة عسكرية بالغة في عملية المطاردة التي كان الجيش الفرنسي يشنها على الأمير عبد القادر. وفي السياق نفسه اتسمت مسيرة **دي مونتانياك** العسكرية والتي قضى معظمها بالجزائر باحترام بالغ للهرمية العسكرية وتقديس لمفهوم معين للشرف العسكري واستماتة في الدفاع عن مصالح الأرستقراطية الفرنسية ومقاومة الجمهورية حيث يذكر له دوره في قمع تمرد الجمهوريين بباريس في أحداث جوان 1832. غير أن المراسلات، التي كان من المفروض بقاؤها سرية باعتبارها وثائق عائلية، تضمنت نقدا لاذعا للسياسة الفرنسية تجاه الوضع في الجزائر، وكذلك نقدا واضحا لبعض الأساليب العسكرية المعتمدة في مواجهة الأمير ورفضا لبعض الإختيارات وخاصة الهدنة بين الأمير وبيجو Bugeaud. قضى **دي مونتانياك** تجربته الجزائرية على أمل مواجهة الأمير وأسره أو قتله معتبرا أن ذلك فحسب ما سيجعله يتخطى في آجال قياسية جميع الرتب العسكرية العليا، غير أن المطالع للمراسلات يشعر بتضاؤل حلم **دي مونتانياك** الذي لا يخفي في بعض الرسائل تخوفه من أن يصبح القناص هو الطريدة، وهو ما حصل بالفعل في معركة سيدي ابراهيم التي أبادت فيها قوات الأمير

فرقة من 450 جنديا وضابطا فرنسيا من ضمنهم **دي مونتانياك** نفسه واعتبرت آنذاك كارثة عسكرية فرنسية. من ناحية أخرى تبنى ناشر المراسلات اختيارات قد تكون أثرت على الفكرة التي أراد **دي مونتانياك** تبليغها من خلال رسائله حول بعض العسكريين أو السياسيين وهو ما تشير إليه عمليات التهذيب وحذف المقتطفات الخاصة بنقد عناصر كانت لا تزال نافذة إبان صدور الكتاب، مما يجعلنا أمام مصدر يشكو من بعض التشويه لأهداف اجتماعية أو سياسية. غير أن "رسائل جندي" يبقى مع ذلك من أهم المصادر العسكرية غير الرسمية حول هذه الفترة سواء بنقله لأطوار عملية الغزو من 1836 إلى 1845 دون الخضوع لمراقبة السلطات العسكرية أو بصبغته الذاتية الغالبة التي تجعل مضمونه حيا ومعبرا عن الرؤية الذاتية لمؤلفه.

أما مصدرنا الثاني والذي يشبه إلى حد كبير في شكله مراسلات **دي مونتانياك** فهي مذكرات الدكتور بونافون Docteur Bonnafont الطبيب العسكري الذي قضى بالجزائر إثني عشر عاما يتابع على رأس فريق من الإسعاف الطبي العسكري معظم العمليات العسكرية الكبرى مما يجعله شاهدا لا يقل أهمية من حيث قربه من الأحداث عن بقية الضباط والجنود. ولد جان بيار بونافون في 1805 وتوفي في 1891، وقد خدم قبل التحاقه بالجزائر في الفرقة السادسة للحرس الملكي. في 1830 إذا التحق بونافون بالفيلق الثالث الفرنسي العامل بالجزائر والذي كان مقره مدينة آكس Aix حيث بقي إلى سنة 1843 في قيادة الفرقة الطبية العسكرية مما سمح له باستمرار بمصاحبة القوات الفرنسية وبالإطلاع عن قرب على أكبر الأحداث العسكرية التي صاحبت الغزو مما جعل مذكراته التي كان يحررها منذ حلوله بالجزائر يوما بيوم مصدرا أساسيا لدراسة تاريخ الإحتلال [3]. شهد الدكتور بونافون أكثر من عشرين معركة كجراح عسكري وقد سمحت له ممارسته للجراحة في 1834 بتقديم رسالة للحصول على دكتوراه في الطب الجراحي من جامعة مونبليي حول "الجروح الناجمة عن الأسلحة النارية الملاحظة بالجزائر". وبالفعل فإن رتبته العلمية ستسهل له الدخول في علاقات شخصية مع كبار قادة الغزو نقل لنا بعض ملامحها في يومياته. إلى جانب اهتماماته الطبية أولى الدكتور بونافون عناية

3) A. Quantin, O. Uzanne, *Le livre. **Revue du monde littéraire**. Bibliographie moderne.* 4ème année, 1883, p.464.

بظروف التغذية والصحة في صفوف الجيش كما أفرد مؤلفات لجوانب أخرى من الحياة في الجزائر مما يجعله من أول الباحثين الإتنولوجيين المختصين [4]. تبرز من خلال مؤلفات **بونافون** مواقفه من مسألة الإدماج وتعصبه العرقي والقومي واعتباره أن أكبر عائق لإدماج الجزائريين في الحضارة الفرنسية هو الإسلام [5] معارضا بذلك الدعوات التي بدأت تظهر منذ الربع الثالث من القرن التاسع عشر لتغيير السياسة العنيفة المتبعة ضد الأهالي بسياسة أكثر تفهما لخصوصياتهم والتي كانت الأساس الذي بنيت عليه فكرة "المملكة العربية". كتب بونافون إثنا عشر سنة بالجزائر إذا على شكل مذكرات يومية يحضر فيها الجانب الأدبي بقوة مما جعل بعض النقاد يعتبرونه من صنف الأدب [6] أكثر منه مؤلفا تاريخيا، غير أن المؤلف لا يفرد لنفسه ولدوره الخاص أهمية استثنائية ضمن أحداث الكتاب وهو سلوك متواضع نادر بالنسبة للمعروف عن مؤلفي المذكرات.

أما كتاب **موريس دي بونقران** Maurice de Bongrain المعنون "أسرى دائرة عبد القادر(سيدي ابراهيم وسيدي موسى) 1845-1846، ذكريات من الحياة العسكرية بإفريقيا" [7]، والصادر في 1864، فيمثل إلى جانب كتاب **إرنست ألبي** Ernest Alby الصادر في جزئين سنة 1847 بعنوان "تاريخ الأسرى الفرنسيين في إفريقيا منذ الغزو"، نوعا مختلفا من الأدب التاريخي العسكري. يتعلق الأمر في الكتابين بموضوع أسرى الأمير عبد القادر من الفرنسيين، حيث يسعى المؤلفان إلى نقل صورة عن الحياة في الأسر، مركزين على معاناة الأسرى ومولين أكبر اهتمام بعلاقة الأمير ومساعديه بهم. وتمثل

---

4) كتب بونافون مؤلفات عديدة نوردها بحسب تواريخ نشرها نقلا عن نارسيس فوكون كما يلي :
Sur le choléra d'Alger (1835) ; ***Sur l'influence du climat d'Afrique sur la phtisie pulmonaire*** (1836) ; ***Sur le degré de salubrité du climat d'Alger*** (1837) ; ***Géographie médicale d'Alger et ses environs*** (1839). ***Réflexions sur l'Algérie, particulièrement sur la province de Constantine*** (1846) ; ***La Femme arabe dans la province de Constantine*** (1865) ; ***De l'acclimatation des Européens et de l'existence d'une population civile romaine en Algérie démontrée par l'histoire*** (1871) ; ***Douze ans en Algérie*** (1880) ; ***Pérégrinations en Algérie*** (1884).

5) Narcisse Faucon, ***Livre d'or de l'Algérie***, notice Bonnafont.

6) ***La Revue scientifique de la France et de l'étranger***, 3ème année, 1er semestre, p. 660.

7) Maurice de Bongrain, ***Les captifs de la deïra d'Abd-el-Kader (Sidi Brahim et Sidi Moussa) 1845-1846. Souvenirs de la vie militaire en Afrique***, Lille-Paris 1864.

عملية إعدام الأسرى المائتين والستين عقدة الكتابين باعتبار الصدمة التي أحدثتها تلك العملية في الرأي العام الفرنسي بالجزائر وبالمتروبول والتي تلت في الحقيقة هزيمتين عسكريتين شنيعتين لقوات فرنسية في مواجهة الأمير ليس من ناحية عدد القتلى فحسب وإنما أيضا من ناحية العدد غير المعهود من الأسرى الذين سقطوا في قبضة قوات الأمير. غير أن ما يميز الكتابين أكثر من ذلك في الحقيقة. فنحن هنا بإزاء مؤلفين لم يشارك أي من مؤلفيهما في الأحداث مباشرة ولا شهداها، كما أنهما لم يكونا من العسكريين أصلا. إن الأمر متعلق بمؤلفين أدبيين، جمعا ووثقا ما قالا إنها شهادات من أسرى قضوا في معسكر الأمير زمنا طويلا نسبيا مما سمح لهم بمعرفة الحياة العربية عن كثب وتكوين صورة واضحة عن الأمير وأسرته وكبار ضباطه ومعاونيه، تلك الصورة التي حاول المؤلفان نشرها. لا نعلم في الحقيقة الشيء الكثير عن موريس دي بونقران، بل إن ما نعرفه هو ما ذكره هو عن نفسه في مقدمة مؤلفه حيث يذكر أنه تعرف على سبيل الصدفة على عسكري متقاعد استوطن بالجزائر كان من ضمن أسرى الأمير، وأنه قام بناء على شهادته وكثير من الوثائق التي زوده بها بتأليف كتاب أراد من خلاله تقديم لمحة عن جانب من تضحيات الجنود الفرنسيين أثناء الغزو وكذلك صورة عن الأمير الذي يعامل باستمرار بتحامل لدى الكتاب الفرنسيين. اما **إرنست ألبي** فهو أكثر شهرة من زميله، فقد كان من أشهر الأدباء الفرنسيين في حينه بل واعتبر منشئا لصنف الرواية التاريخية. يحافظ **إرنست ألبي** في كتاباته حول الأسرى الفرنسيين لدى الأمير عبد القادر على كثير من الغموض المتعلق بشخصه، وتقدمه لنا بعض المصادر كأديب وعضو في بعض الحلقات الأدبية الكبيرة (جمعية أهل الأدب La Société des gens de lettres) [8] غير أن هويته تبقى مع ذلك مشوبة بنوع من الغموض مصدرها استعماله لأسماء مستعارة وتصدير كتبه بها مما أوقع بعض الكتاب في نوع من الخلط. استعمل **ألبي** اسم **أوغست دي فرانس** France Auguste de على بعض كتبه، كما أنه رغم شهرته باسم **ارنست ألبي** فقد كان اسمه الحقيقي **فرانسوا أنطوان ألبي** François-Antoine Alby . تقدم لنا بعض المصادر **ألبي** كأديب متعلق بالبروتستانتية، حيث نعته المصادر الكنسية عند وفاته في 1868

8) Georges d' Heylli ***Dictionnaire Des Pseudonymes***, Paris 1887 p.479

بوصفه أحد العناصر الأكثر وفاء لتعاليم المذهب البروتستانتي [9]. كما عرف عن **ألبي** موقفه المتفهم للخصوصيات اليهودية حيث ألف في الدفاع عن اليهود كتابا استعرض فيه أشكال الإضطهاد الذي تعرضوا إليه في فرنسا مما لاقى استحسانا لدى الأوساط اليهودية الفرنسية التي مدحت تسامحه [10]. ويبدو أن الخلط الذي تعمد **ألبي** المحافظة عليه بين اسمه الحقيقي والأسماء المستعارة التي استعملها في إمضاء بعض كتبه قد كون انطباعا بأن المؤلف لا يعدو أن يكون أحد ضباط جيش الإحتلال، وهو ما دعا بعض المصادر المتخصصة في تتبع الحركة الأدبية للتأكيد على أن الأمر يتعلق بشخص مدني، مع الإعتذار عن التصريح بالعناوين التي أصدرها بأسماء مستعارة [11]. نعلم من خلال مصادر متعددة أن الكتاب الذين أمضاه **ألبي** باسم دي فرانس [12] هو من تأليفه اعتمادا على شهادات عسكري سابق قضى أسيرا في معسكرات الأمير مدة طويلة. وأصدر **ألبي** باسمه الحقيقي كتابا آخر [13]، اعتمادا على شهادات مشابهة، خصصه لحياة الأسر التي قضاها البحار العسكري Escoffier الذي أصبح في نظر الرأي العام الفرنسي رمزا للتضحية بالنفس [14]. استعمل **ألبي** نفس مادة الكتابين المذكورين تقريبا في تأليفه الموالي "تاريخ الأسرى الفرنسيين في إفريقيا منذ الغزو" [15]. أما كتابه حول آخر الأسرى الفرنسيين لدى

---

9) *Bulletin historique et littéraire, édité par la Société de l'histoire du protestantisme français, année 3, série 2, tome 17, page 352.*

10) ***Archives israélites de France**, revue mensuelle, historique, biographique, bibliographique et littéraire*, sous la direction de S. Cahen, Année 1840, tome1, p.p. 324-325.

11) Emile Chevalet, *Les 365. **Annuaire de la littérature et des auteurs contemporains***, Paris, Librairie moderne, 1858, page 3.

12) A. de France, ***Les Prisonniers d'Abd-el-Kader, ou Cinq mois de captivité chez les Arabes***

13) E. Alby, ***La captivité du Trompette Escoffier***, Paris, Gabriel Roux, 1848. 2 vol

14) يعتبر أرنست ألبي الأديب الذي نقل للرأي العام قصة بطولة هذا البحار، أنظر

Charles Monselet, La lorgnette littéraire : dictionnaire de grands et des petits auteurs de mon temps, p.2 .

15) E. Alby, Histoire des prisonniers français en Afrique depuis la conquête, Paris 1847, 2 volumes.

من المهم هنا أن نلاحظ تمسك المؤلف بالغموض الناجم عن استعماله لأسم مستعار، حيث يرد على أيه اتهامات ممكنة بالانتحال بأنه حصل على موافقة مكتوبة وممضاة من أوغست دي فرانس لاستعمال شهادته بالطريقة التي يختارها. انظر ذلك في تقديمه للكتاب.

الأمير [16] فيوضح أخيرا المنهج المعتمد من قبل المؤلف حيث ورد في تصديره شكره لملكة إسبانيا للدور الذي قام به ممثلها في مليلة لإنقاذ عشرة من الجنود والضباط الفرنسيين الفارين من الأسر، وشكره الخاص كمؤلف تولى تحرير قصة هؤلاء الأسرى وإعدادها للنشر [17]. ولعلنا نستنتج من ذلك أن الشهرة الأدبية للمؤلف واختصاصه في هذا النوع من الأدب هما ما جعل الباحثين عن الشهرة من بين العسكريين الفرنسيين العاملين بالجزائر يقبلون على خدماته، وهو أمر يبدو أنه كان يجد هوى في نفسه. ذاك هو النمط الذي اعتمده **ألبي** في كل مؤلفاته حول الأسرى الفرنسيين لدى الأمير، حيث اعتمد ثلاث مجموعات من الشهادات دون أن يكلف نفسه عناء الإنتقال إلى الجزائر للتثبت من بعض التفاصيل التي تثير لدينا أكبر الشكوك في معرفة الكاتب بأبجديات الحياة العربية والإسلام وشخصية الأمير [18]. نصوص **ألبي** أدبية تاريخية تعتمد الكثير من المبالغة مما يفرض علينا التسلح بأكبر قدر من الحذر في مقاربتها، حيث ينسب لشخصيات كتبه سلوكات متطاولة على الأمير وأعوانه أثناء الأسر نعتقد أنها كانت مجرد بناء درامي خيالي استعمله الكاتب تلبية لانتظارات القراء الفرنسيين المتعاطفين مع تلك الشخصيات والمتعطشة لكل ما من شأنه الحط من القيمة الأخلاقية للأمير ومساعديه. من هنا فإن "تاريخ الأسرى الفرنسيين في إفريقيا منذ الغزو" يعتبر مصدرا من الدرجة الثانية رغم حضور الشهادة التاريخية فيه، غير أن ذلك لا يحط تماما من قيمته كوثيقة تاريخية، فعوضا عن نقل الوقائع دون أية مبالغة أو تهويل، يقدم لنا **ألبي** صورة عن انتظارات الرأي العام من هذا النوع من الكتابات والتصورات الناشئة لدى جانب من الطبقة المثقفة المحافظة في المتروبول عن الوضع في الجزائر إبان العمليات الحربية.

---

16) E. Alby, ***Les vêpres marocaines ou les derniers prisonniers d'Abd-el-Kader***, Librairie Nouvelle, 1853.

17) *Idem*, dédicace.

18) يحتوي الكتاب على الكثير من الأخطاء التي تبين عدم اطلاع المؤلف على أبسط المعلومات عن الأمير وعن تعاليم الإسلام فيذكر على سبيل المثال أن الأمير اصطحب والـده إلى الحج في المرة الثانية ولم يتجاوز عمره الثمانـي سنوات (ص 17)، وأن المسلمين يحجون لمكة للسجود أما قبر الرسول (143ص)، كما يذكر في موقع آخر أن مواعيد الصلاة عند المسلمين ستة ثابتة الزمن، ويقدم وصفا مثيرا للتعجب لطقوس العبادة وخاصة الصلاة توحي بجهل تام بحياة المسلمين (ص 104-105).

يقدم لنا كتاب القبطان **بلان** Le capitaine Blanc شهادته عن الحرب في الجزائر كضابط شارك في معارك ضد قوات الأمير [19] غير أن شهادته لا تتضمن ذكر أي اتصال مباشر بالأمير، لذلك فهو لا يقدم لنا إضافة حقيقية ناجمة عن علاقة خصوصية بالأمير. يمكن تفسير ذلك في الحقيقة بتواضع الرتبة العسكرية للقبطان **بلان** مما لم يؤهله للعب أدوار قيادية تذكر في مواجهة القبائل الثائرة. غير أن مذكراته التي لم تنشر سوى في 1857 يبدو أنها راعت عند صدورها جملة من المعطيات وتأثرت بها. وأهم هذه المعطيات كانت بدون شك انتهاء ثورة الأمير ومغادرته للجزائر، وتغير الإستراتيجية العسكرية الفرنسية في مواجهته منذ معاهدتي دي ميشال والتافنة مما جعل الكاتب يسهب إسهابا كبيرا في نقد الجنرالين دي ميشال وبيجو دون أن يخشى أية ردود فعل منهما أو من أنصارهما. كما أن القبطان **بلان** يبدو من خلال الكثير من فقرات الكتاب في مواجهة التحول الذي بدأ يطرأ على نظرة الرأي العام الفرنسي [20] للأمير عبد القادر بعد أحداث دمشق الشهيرة التي أصبح الأمير يحظى بعدها بتقدير كبير في فرنسا خصوصا وأوروبا عموما، حيث يبدو **بلان** مصرا على العودة بقرائه للصورة القديمة كعدو لدود لفرنسا. وبغض النظر عن حقيقة هذا المسعى من عدمه فإنه يعبر عن نوع من الامتعاض لدى كاتب كان يتوقع أن تلقى مذكراته القبول التذي لقيته مذكرات سابقيه من العسكريين عندما كانت الحرب في أوجها مع الأمير وعندما كان الأمير يجسد جميع المخاوف من رؤية فرنسا تفقد هيبتها أمام القبائل الثائرة. نفس التقييم تقريبا يمكن أن نورده لكتاب هنري **فابر** Henri Fabre [21] الضابط في سلاح المدفعية، والذي يبدو ذا مضمون هزيل ولكنه شديد التعبير عن حالة ذهنية معينة سادت غداة استسلام الأمير لدى كتاب المذكرات من العسكريين الذين أحسوا أن زمن إشهار بطولاتهم قد ولى.

---

19) Capitaine Blanc, ***Récits d'un officier d'Afrique***, Tours 1857

20) نلاحظ ذلك بوضوح في كتابه الثاني الصادر في 1885 الذي أراده تخليدا لذكرى ضباط وجنود" يتجه الجميع، كتابا ورسميين، لنسيان دورهم" :

Capitaine Blanc, ***Généraux et Soldats d'Afrique***, Plon 1885

21) Henri Fabre, ***Souvenirs militaires d'Afrique***, Paris 1861.

تبدو لنا هذه المصادر من التنوع والثراء بما يسمح لنا بدراسة التصورات الفرنسية لشخصية الأمير وكفاحه ضد الإحتلال الفرنسي، وهي في هذه الحال تصورات أعدائه الميدانيين المباشرين المعنيين أساسا بتطور الوضع العسكري. ورغم أن الإعتبارات السياسية لا تغيب تماما عن هذه المصادر فإنها لا تشوه التوجه العم للشهادات المقدمة من طرف مؤلفين أرادوا تقديم صورة عن بطولاتهم الميدانية لعائلاتهم أو للرأي العام في فرنسا، تخليدا "للملحمة" التي خاضها الجيش الفرنسي في سبيل "نشر الحضارة والمدنية" بالجزائر. كما أن تنوعها من المراسلات الشخصية إلى التقارير الإستخبارية مرورا بانص الأدبي وباليوميات الشخصية، يكفل تكامل الأبعاد في الصورة التي رسمت للأمير من منظور فرنسي بحت.

بديهي أن تحتل الجوانب العسكرية الأهمية الأولى في هذه المصادر، فكتابها كما أسلفنا من العسكريين الذين كان تخليد بطولاتهم في مواجهة الأمير هما رئيسيا حاولوا التصدي له في مذكراتهم أو مراسلاتهم. من هذا المنطلق فإن الحديث عن عبد القادر حتى بالنسبة لمن لم يدخل في علاقة مباشرة معه يبدو ضروريا لترسيخ تلك الصورة البطولية وإعطاء الإنطباع بالمساهمة ليس في تحقيق نجاح الغزو فحسب وإنما أيضا في التصدي لأبرز أعداء فرنسا الذين قادوا الحرب ضد قواتها بالجزائر طيلة عقد ونصف، بما يعني أن كتاب تلك النصوص في غالبهم كانوا يتوقون إلى تحقيق استجابة معينة لانتظارات الرأي العام الفرنسي في فترة حساسة من تاريخ الإحتلال، ذلك الرأي العام المتعطش لأخبار بلاد كانت تقع بالنسبة إليه في عالم اخر لا يعلم عنه شيئا سوى عبر بعض أخبار الصحف وكتابات العسكريين.

إن هذه الكتابات إذا لا تقدم لنا إضاءة لتاريخ الأمير عبد القادر بقدر ما تسمح لنا بكشف التصورات والتمثلات السائدة لشخصيته ومسيرته العسكرية والسياسية في وسط جانب من الفاعلين الميدانيين في أحداث الغزو. لذلك فإن عملنا لا يعتني بشخصية الأمير وإنما بصورته في مخيال العسكريين الذين حاولوا من خلال تلك المنشورات تحقيق انطباع معين لدى رأي عام شديد الحيرة إزاء ما يحدث بالجزائر بين 1830 و1847.

2- الأميرفي كتابات العسكريين: تعدد الصور

إن مطالع تلك النصوص لا يخرج بتمثل واحد لشخصية الأمير التي تبدو الإحاطة بها شيئا معقدا لدى الكتاب العسكريين. ذلك أن هذه الكتابات، تقدم لنا صورا عن الأمير تختلف بحسب الإطار الذي أنجزت فيه وبحسب قرب محرريها من الأحداث. وهكذا تتراوح تلك الصورة بين شكل أول يبدو فيه الأمير **قائدا متعصبا لمجموعة من الهمج المتعطشين لسفك الدماء**، إلى شكل آخر يحاول تقديم تمثل له بالتركيز على **قدراته التنظيمية وإرادته القوية في تكتيل أمة كاملة وراءه من أجل حمايتها من الأخطار التي تتهدد وجودها**، إلى شكل ثالث يتعرض **للصفات الأخلاقية والأدبية للأمير** بغض النظر عن تقييم المؤلفين لتلك الصفات. غير أن هذه التمثلات لا ينبغي أن تنعتق من الإطار التاريخي العام الذي نشأت فيه. وأول مميزات هذا الإطار التي لا ينبغي إغفالها هو اعتباره قبل كل شيء عدوا لفرنسا يجب القضاء عليه إذا كان الهدف هو إنجاح الغزو. غير أن هذا الإطار التاريخي يتمثل أيضا في مرور العلاقة بين الأمير والسيادة الفرنسية بمراحل يمكن أن نقسمها إلى **مرحلة الصراع الكلي والمباشر، ومرحلة الهدنة**، ومرحلة ما بعد الإستسلام وخاصة المرحلة الدمشقية التي ستصوغ صورة مختلفة تماما للأمير لدى الرأي العام الفرنسي حيث ستبرز تمثلات جديدة له تغلب عليها المسحة الإنسانية. ولأن الأمر يتعلق بمذكرات عسكريين شهود فإننا سنقصر إهتمامنا على المرحلتين الأولتين باعتبار أن ما نجده في روايات هؤلاء الشهود عن مرحلة المنفي لا يتعدى الإنطباعات السياسية العامة ولا يرقى إلى مستوى الشهادة التاريخية.

ليس من الضروري هنا العودة إلى منابع التمثلات الأوروبية عموما والفرنسية خصوصا "للأهلي" المختلف عرقا ودينا ولونا والتي نكتشف حضورها القوي في هذه الكتابات منذ اللحظة الأولى التي وجد فيها الطرفان نفسيهما وجها لوجه [22]. غير أنه من الضروري أن نؤكد الحضور القوي لتلك

---

22) تعرضنا في مقال سابق لمميزات هذه الصورة :

Adnen Mansar, «"Les mœurs de la ville" : voyageurs Français et "mœurs indigènes" au Maroc dans la deuxième moitié du XIXème siècle», communication présentée au colloque "**Poétique de la ville marocaine**" organisé par la Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Meknès les 20 et 21 juin 2006, actes à paraître.

التمثلات وتحديدها للصورة المقدمة عن الأمير خصوصا وللجزائريين عموما في تلك الشهادات، فمؤلفوها إجمالا لم يتحصلوا بحكم اختصاصهم في الوظائف العسكرية على أية ثقافة تتيح لهم انتهاج موقف نقدي إزاء تلك الصورة السائدة.

أ- عبد القادر المقاتل والقائد العسكري

تتميز رسائل **دي مونتانياك** بسيادة تلك التمثلات بطريقة تتجاوز كلما وجدناه في المصادر الأخرى موضوع الدراسة. يمكن تفسير جانب من الحماس الذي يبديه الضابط المذكور في تصوير الأمير بالشكل الذي نكتشفه لدى قراءة رسائله بعاملين أساسيين : أنه كان يكتب في الأصل رسائل شخصية غير معدة للنشر وموجهة لجمهور ضيق هم أفراد عائلته التي يعرف انتظاراتها ويعلم أيضا التأثير الذي تحدثه مراسلاته في وعي أفرادها. من هنا فهو يكتب لجمهور يعرف مسبقا ميولاته وطريقة تفكيره لذلك فإنه لم يراع أي اعتبارات من شأنها أن تشوه الصورة التي يسعى لتقديمها عن الأمير وعن الجزائريين. من هذا المنطلق يمكن القول باطمئنان إلى أن الصورة المنقولة لنا تعبر بصفة صادقة عن تصورات محرر الرسائل كممثل لجانب كبير من العسكريين الفرنسيين المشاركين في الغزو. كما أن هناك عاملا آخر لا ينبغي إغفاله في نظرنا باعتبار أن **دي مونتانياك** يصرح به أكثر من مرة في ثنايا رسائله، وهو اعتباره الحرب في الجزائر فرصة للترقي في الرتب العسكرية، وهو أمر كان يستعجل حدوثه عن طريق إبداء رغبته المتواصلة في أن يكون في الصفوف الأمامية كلما تعلق الأمر بمواجهة مع قوات الأمير. ذلك ما يفسر إحباطه المتواصل من سرعة تحركات الأمير ومن الحصول على المعلومات الموثوقة حول مكان وجوده، كما أنه يفسر تهوره في عملية سيدي ابراهيم التي أدت إلى مقتله وإبادة كامل الفرقة العسكرية التي كان يقودها على يد الأمير نفسه في واحدة من أسوأ الكوارث العسكرية الفرنسية في الجزائر (سبتمبر 1845). هذا هو الإطار الخصوصي الذي ينبغي أخذه بالإعتبار عند مطالعة رسائل **دي مونتانياك**.

من ضمن عشرات الرسائل التي حررها **دي مونتانياك** نجد أربع رسائل ذات قيمة خاصة في توضيح تصور المؤلف للأمير كقائد عسكري، وهي رسالة 20 جانفي 1840 (حررت في وهران)، ورسالة 18 جوان 1842 (في بسكرة)،

ورسالتي 18 نوفمبر 1844 و 8 جانفي 1845(حررتا في "الغزوات"). لا نجد في هذه الرسائل حتما أي شهادة مباشرة عن مواجهة مع الأمير، بل تصويرا لحالة من القلق والإنتظار وتوقع المواجهة التي كان **دي مونتانياك** يعتبرها السبيل الوحيد للترقي في سلم الرتب والبطولة. تعبر رسالة 20 جانفي 1840 بصفة خاصة عن حالة من الضجر من عدم رؤية الأساليب والخطط المتبعة من قبل الجيش تؤتي أكلها. يستعمل **دي مونتانياك** في هذه الرسالة ضمير المخاطب بطريقة مكثفة، حيث يبدو المضمون وكأنه موجه لقادة جيش الغزو، ولكنه يعبر في الآن نفسه عن إحباطه من عدم القدرة على وضع حد لسلطة الأمير وتمرده رغم فارق الإمكانيات : "والآن، ماذا سنفعل ؟ وإلى أين سنتجه ؟ تريدون معاقبة عبد القادر، ولكن يجب أن تبدأوا أولا بالقبض عليه، وهذا ليس أهون ما في الأمر. تعتقدون، أيها القادة الشجعان أن طائر الصحراء ذاك سيبقى في انتظاركم حتى تقضوا عليه. لا، هو ليس أحمقا بهذا القدر" [23]. هل أثر تغير ميزان القوى بين الطرفين بعد خمس سنوان من هذه الرسالة على انطباع دي مونتنياك بعدم إمكانية القضاء على الأمير؟ لا يبدو ذلك من خلال إحدى آخر رسائل الضابط التي يبلغ فيها الإحباط أقصى درجاته : "تريدون القبض على عبد القادر وحبسه ؟ أنتم مساكين. هذا الرجل تدفعه يد قوية، إنها يد الله. هذا الرجل لا يجد كل الأرض فسيحة بما يكفي له، ومع ذلك تعتقدون أن بإمكانكم حبسه كما يحبس أي مهيج بائس ؟ آه يا إلاهي، ينبغي القبض عليه قبل ذلك كله" [24]. هل كان **دي مونتانياك** يوجه الحديث إلى جنرالات الجيش أم يناجي نفسه؟ من المؤكد أنه كان يعبر عن الإحساس بالورطة في مواجهة قائد سريع التحرك وخبير بالأرض وبالسكان رغم تمركز القوة التي كان صاحب الرسائل يرأسها في موقع مهيأ لمراقبة تحركات الأمير عبر الحدود الغربية مع المغرب في "الغزوات" [25] من منطقة تلمسان. إن نقص المعلومات هو ما يشتكي منه **دي مونتانياك** في كثير من رسائله حيث بصرح في إحداها على قدرة الأمير

---

23) دي مونتانياك، مصدر مذكور، رسالة 20 جانفي 1840، ص 71.

24) نفس المصدر، رسالة 8 جانفي 1845.

25) يتميز موقع الغزوات بمراقبته لأهم الطرق الشمالية بين الجزائر والمغرب في فترة تميزت بوجود دائرة الأمير داخل الأراضي المغربية، كما أن طابعه الساحلي يسمح للقوة الفرنسية المرابطة فيه بالحصول على التموين الكافي عن طريق البحر في مرحلة من انعدام الأمن على الطرقات مع المراكز العسكرية الأخرى للجيش.

الفائقة على الإنتقال في زمن قياسي من مكان إلى آخر ونجاحه في تشتيت القوات الفرنسية التي لم تكن تعرف بموقعه إلا بعد فوات الأوان، بالرغم من الإستعمال المكثف للجواسيس من الأهالي [26]. كما أن **دي مونتانياك** يعبر عن شك دائم في ولاء القبائل الواقعة في مجال سيطرة الجيش الفرنسي للإحتلال وخاصة أفرادها الذين سبق وأن قاتلوا مع الأمير والذين لا هم لهم، حسب **دي مونتانياك**، سوى الإلتحاق مجددا بزعيمهم السابق [27]. إن ضمان ولاء السكان يبدو مسألة بالغة التعقيد بالنسبة لضباط الجيش الذين كانوا يشعرون باستفادة الأمير من انعدام المعلومات لديهم ويحسن،عبر شبكته الواسعة لجمع المعطيات، استباق التحركات الفرنسية واختيار الزمن والمكان الملائمين لمهاجمة تلك القوات. يتحدث **ألبي**، على لسان شهوده، عن نفس المعضلة عندما يذكر سعة اطلاع الأمير على أسرار الجيش الفرنسي، حيث يذكر في عدة مناسبات أنه كان يطلع على جانب هام من المراسلات المتبادلة بين قادة الجيش قبل الضباط الموجهة إليهم، وذلك عن طريق الأشخاص المكلفين بنقل تلك المراسلات، وكان يحسن استغلال ذلك. يفسر كتبة هذا النوع من المصادر الأمر بالإنحطاط الأخلاقي للعرب وبتعلقهم بتعاليم دين لا يمنعهم من الخيانة. غير ان العرب ليسوا الوحيدين الذين كانوا يمدون الأمير بما يحتاجه في حركته من معلومات، حيث يبدو أن من بين الأوروبيين وكذلك الفرنسيين، من المستقرين في مدن كبرى وبالغة الأهمية للجيش الفرنسي كمدينة الجزائر، ومن ضمن القوات النظامية وفي أوساط التجار، من كان يلعب هذا الدور إضافة لتسهيلهم حصول الأمير على الأسلحة والبارود وكل أنواع التموين الأخرى [28]. إن ما تسعى المصادر إلى توضيحه هنا لا يعدو أن يكون شكلا من أشكال رفض الأهالي للإحتلال ومقاومتهم له بكل الأساليب المتاحة من ناحية، ووجود مصالح متناقضة داخل الجبهة الفرنسية بين الفئة المستفيدة من فترة الهدنة (غداة اتفاقية دي ميشال واتفاقية التافنة) وازدهار حركة التبادل مع القبائل أثناءها، وبين العسكريين وخاصة ضباط الفئتين الصغرى والمتوسطة الذين كانوا يتوقون لعودة المعارك من ناحية أخرى. كما أن تناقضا آخر بين هؤلاء وقياداتهم العليا

---

26) دي مونتانياك، رسالة 18 نوفمبر 1844، ص 408-409.

27) أرنست ألبي، مصدر سابق، ص 124-125

28) دي مونتانياك، رسالة بتاريخ 31 سبتمبر 1840، ص 132-133.

حول التكتيك العسكري المتبع في مواجهة الأمير والقبائل الموالية له يظهر بوضوح من خلال هذه المصادر. ينبغي العودة إلى الإطار العام لسير العمليات والمتميز بالصراع الحاد بين أنصار التوسع في الإحتلال وأنصار الإحتلال الموقعي لنفهم هذه التناقضات، وهي تناقضات يبدو أنها حددت بنسبة كبيرة طبيعة القيادات التي كانت ترسلها فرنسا إلى الجزائر.

ينخرط مؤلفو المصادر التي اعتمدناها في نقد التكتيكات المتبعة من طرف قيادة جيش الإحتلال ضد قوات الأمير، غير أن ذلك لا يعني انتصارها لفريق دون آخر في صراع سياسي بحت تجري فصوله في باريس كما في الجزائر. إن ما يشغل هؤلاء بالذات هو فشل كل الأساليب المتبعة في القضاء على "التمرد"، وهم يرجعون ذلك، بحسب تقييماتهم المختلفة، إما إلى أن ما فعل غير كاف أو أنه كان يجب تجنبه.

ينتصر مونتانياك لمبدأ ستتبناه القيادة العليا بوضوح بعد سقوط هدنة التافنة، وهو مبدأ "الأرض المحروقة"، حيث يدعو في رسائل عديدة إلى تغيير التكتيك المتبع كليا واتباع تكتيك الأمير ذاته في سرعة الحركة، مع دموية مبالغ فيها ضد القبائل. لا عجب أن نجد **دي مونتانياك** يدافع عن سياسة الجنرال **بليسيي** Pélissier و**دي كافينياك** De Cavaignac و**سانت أرنو** Saint-Arnaud الدموية [29] ويجد لها التبرير الكافي في طبيعة الخصم وعدوانية المجال، فقد كان طيلة رسائله يقدم نفسه "كرسول إبادة لكل ما هو عربي" في الجزائر [30]. إن مؤلف "رسائل جندي" شديد النقد للسلطات العليا بالجزائر ولسعيها إبرام هدنة مع الأمير، ولا يبدي أي تعاطف مع المنطق الكامن وراء ذلك المسعى حتى وإن تعلق الأمر بتفرغ الجيش للسيطرة على الجهة الشرقية. في رسالة 10 ماي 1837 ينقل **دي مونتانياك** خبر عقد بيجو اتفاقا لوقف القتال مع الأمير، غير أنه يضع ذلك على عاتق الإشاعة، ويرى في الأمر محاولة من جانب الأمير لالتقاط أنفاسه بعد المطاردة التي ما انفك يسلطها عليه الجنرال

---

29) تتمثل تلك السياسة فيما سمي بالطمر l'emmurement والتدخين les enfumades ضد القبائل المناوئة للإحتلال الذي طبقها القادة المذكورون وأشهرها عملية الإبادة الجماعية التي طبقها بليسيي ضد أولا رياح في مرتفعات الظهرة والتي امتدحها الماريشال بيجو. أنظر موقف دي مونتانياك من تلك الشنائع في رسالته بتاريخ 21 أوت 1945، ص 499.

30) دي مونتانياك، رسالته بتاريخ 24 جانفي 1843 ص 335.

الفرنسي [31]. لكن موقفه سرعان ما سيتغير بعد ورود الأخبار الموثوقة بعقد الإتفاق وبمضمون بنوده التي كانت تحقق جانبا كبيرا من شروط الأمير وخاصة بالشكل الذي تم به لقاء الجنرال بيجو بالأمير والذي اعتبره **دي مونتانياك** مهينا لفرنسا [32]. لم يكن مؤلف الرسائل حتما من أنصار الهدنة كالكثير من الضباط الآخرين، لكنه لن يتردد عن ملاحظة الحالة الناتجة عنها بالنسبة لأمن القوات العسكرية الفرنسية وأفراد الجالية: "إن عبد القادر يفي بوعوده، بل لعله يفعل ذلك بأمانة... إن منطقة وهران هادئة بالكامل ويمكن أن نذهب في كل الإتجاهات دون أن نخشى شيئا، بل إن شخصا بمفرده بوسعه السفر من بسكرة ومن تلمسان باطمئنان كامل. لا أعرف إن كان هذا الوضع سيدوم" [33]. وبالفعل فإن **دي مونتانياك**، بالرغم من ارتياحه للحالة الجديدة التي من شأنها أن تحمي جنوده من القتل ومسالك تموينه من النهب، لم يكن يأمل في استمرار ذلك الوضع. بل إنه سيسعى أكثر من غيره من الضباط لقطع الطريق على أية عودة إلى الهدنة بعد سقوط اتفاق التافنة، وذلك بإعطاء عملياته ضد القبائل طابعا شديد الدموية وترسيخ حالة من الحقد ستجعل الحرب كلية بعد أن كانت موضعية [34]. ذلك ما فهمه بعض الفرنسيين الذين رأوا في هذا السلوك تعبيرا عن مصلحة شخصية، فخارج ساحات القتال لا بطولة خارقة ولا أوسمة ولا صعود في سلم الوظائف : "إن أسر عبد القادر سيخيب الكثير من الآمال ويدمر الكثير من الطموحات. كيف يمكن أن يصبح البعض جنرالا أو حتى ماريشالا إذا ما أسر عبد القادر وقضي على رأس التمرد وانتهت الحرب ؟ ليس من ترقيات بغير المعارك" [35]. إن الأمر شديد الوضوح بالنسبة لـ**دي مونتانياك** الذي جاء للجزائر بهدف الترقي في سلم الرتب العسكرية كما ورد في مؤلفه. كان الأمير هاما بالنسبة للضابط المؤلف بقدر ما يسمح له بتحقيق طموحه الشخصي، وهو ما يفسر هوسه بتتبعه، ذلك الهوس الذي سيقضي في النهاية عليه في "كارثة" سيدي إبراهيم الشهيرة. لكنه مع ذلك لا يستطيع إخفاء

---

31) دي مونتانياك، مصدر سابق، رسالة بتاريخ 10 ماي 1837، ص 21.

32) نفس المصدر، رسالته بتاريخ 18 جويلية 1837، ص 25-26.

33) نفس المصدر، رسالة 7 سبتمبر 1837، ص 35.

34) نفس المصدر، رسالة 24 جانفي 1843، ص 334. أنظر أيضا ص 214، 299.

35) Maurice comte d'Hérisson, ***La chasse à l'homme***, Paris 1891, p.72.

إعجابه بقائد "يريد الموت واقفا مع من استطاع النجاة من أنصاره، تلك الميتة هي الوحيدة التي يستحقها رجل مثله" [36]. إن الأمير بقدر ما يجسد طموح **دي مونتانياك** في تسلق سلم الرتب العليا، كان يجسد أيضا حالة من الخوف ليست سوى تعبير عن قدرات الأمير في قلب الوضع لصالحه رغم كل ما مني به من خسائر ورغم التفاوت الكبير في الإمكانيات العسكرية بينه وبين جيش الإحتلال. ذلك الخوف هو ما عبر عنه **دي مونتانياك** عندما علق على عودة الأمير إلى سهل الغريس، أي بين أولاد هاشم ، الوسط الذي نشأ فيه الأمير وعرف أوج عظمته السياسية والعسكرية : "الجميع هنا يتخيل أن ظهور الأمير، الذي لا تزال هيبته خارقة، ستؤدي إلى ثورة السكان الذين كان يتزعمهم منذ فترة قصيرة، ويعتقد أن كل نجاحاتنا ستتلاشى أمام هذه الفزعة الكبيرة التي كفت لمدة الأشهر الست السابقة عن التجول في هذه الجهة... ماذا سنفعل ؟" [37]. كان الأمر يهدد بتحول القناص إلى طريدة، وهو ما سيحصل في النهاية [38].

إن عظمة الإنجاز العسكري للأمير لا تتمثل في الإنتصارات التي حققها ضد القوات الفرنسية، فهذه الإنتصارات تبقى محدودة بميزان القوة العسكري وبتأثيرها على المجرى العام للغزو، بل إنها تكمن بالخصوص في قدرته على خوض حرب طويلة جعلت الغزو مكلفا لفرنسا، وفي قدرته أثناء ذلك على النهوض مجددا كلما اعتقد قادة الغزو أن أمره قد انتهى. لقد اعترف فرنسيون كثيرون بهذا الوضع وتوقعوا نتائج سلبية بعيدة المدى لمقاومته على صورة فرنسا كقوة عظمى وعلى مكانتها في التنافس القائم مع أنقلترا [39]. كان عبد القادر أحسن فارس بين العرب على الإطلاق في نظر معظم كتابات العسكريين الفرنسيين، لكنه أكثر من ذلك كان قادرا على تكتيل القبائل حوله وتوحيدها في مواجهة الغزو. غير أن الإقرار بذلك غالبا ما يقع التعرض إليه في إطار نقد سياسة القيادة العليا التي أدت أخطاؤها إلى مد نفوذ الأمير وفسح المجال له لإخضاع القبائل المتمردة على سلطته، بفعل ما اعترفت به معاهدتا دي ميشال

---

36) دي مونتانياك، مصدر سابق، رسالة مؤرخة في 18 جوان 1842، ص 251-252.

37) نفس المصدر، رسالة بتاريخ 3 جوان 1842، ص 246.

38) نفس المصدر، رسالة 8 جانفي 1845، ص 438.

39) ***Les captifs de la deïra d'Abd-el-Kader***, p.16.

والتافنة من سلطة له على معظم المجال الجزائري [40]. هنا تتحول بطولة الخصم إلى إنجاز فرنسي غير إرادي فلا يبقى منها للأمير أي فضل. كما أن الأمير إنما استغل، في تكتيله القبائل ضد الإحتلال، جهلها وعدم اطلاعها على الهدف الحقيقي الذي جاء من أجله الغزو : "صحيح أنه قدم نفسه كراية تتوحد حولها القومية العربية المهددة في نظره بالتدمير ولكنها في الحقيقة مهددة بالتأثر بالحضارة الخيرة التي يحملها معهم هازمو داي الجزائر" [41]. إن الأمير مدين للإحتلال حتى بمكانته بين العرب، "فلولا الإحتلال لبقي طيلة حياته متعبدا مغمورا" [42].

ب- الأمير عبد القادر عن قرب

تقدم بعض النصوص صورة مختلفة أحيانا للأمير عبد القادر وخاصة أثناء فترات الهدنة. يصوغ الدكتور **بونافون** وصفا ينضح بالإعجاب للأمير بمناسبة لقاء التافنة الشهير بينه وبين بيجو. كان عقد تلك الهدنة حاجة فرنسية بالأساس بفعل تطلع الغزو إلى تهدئة على الجبهة الغربية والوسطى تسمح بالتفرغ لمقارعة جديدة مع الحاج أحمد باي قسنطينة. ذلك ما يفسر إلحاح بيجو على الحصول على اتفاق لوقف العمليات العسكرية بين الجانبين، يدفعه في سبيل ذلك أيضا عدم قدرة باريس على توفير الإمكانات التي تسمح بتحويل الحرب من الإحتلال الموضعي إلى الإحتلال الكامل. لقد صحب الدكتور **بونافون** إذا الجنرال بيجو إلى لقاء الأمير، الذي تم في التافنة. كان **بونافون** يراقب ملامح وحركات الأمير بدقة كبيرة أثناء التفاوض مع القائد الفرنسي، مما يسمح لنا بالإطلاع على وصف تفصيلي شبه مسرحي لمفاوض بيجو. يجد **بونافون** في ملامح الأمير ما يشبه القداسة، "إن مجموع ملامحه تشبه قليلا ملامح يسوع" [43]. يغيب وصف العدو ليفسح المجال لمفردات تصرح بتعاطف كبير مع الشخصية موضوع الوصف يتعدى الموقف الذاتي للشاهد ليعبر عن موقف الجنرال بيجو نفسه للأمير ولجيشه : "عندما نهضا، بقيت يداهما

---

40) Récits d'un officier d'Afrique, par le capitaine Blanc, Tours 1857. p 45-46

41) ألبي، مصدر سابق، ص 18.

42) نفس المصدر، ص 188.

43) **Douze ans en Algérie**, op.cit., p275-276.

متشابكتين للحظة، وقد بدت عملية الوداع بين الرجلين معبرة عن رضا متبادل من الجانبين، خاصة من جانب الأمير. امتطى عبد القادر بعد ذلك جواده وفي قفزتين اختفى بين جموع أنصاره. كان مشهد سحري يقع حولنا ويشعرنا بأحاسيس تعكس عظمة الموضوع وشساعة المجال الذي وقع فيه الحدث. وما أن التحق الأمير بمرافقيه حتى انطلقت، بناء على إشارة متفق عليها مسبقا، موسيقى صاخبة من وسط جيشه... كان تأثير ذلك علينا يستعصي على الوصف. لنتصور جيشا من إثني عشر ألف رجل، وكل العرب المتجمعين على المرتفعات المحيطة بنا، يطلقون جميعا وفي الوقت نفسه صرخات متزامنة مع قرع شديد للطبول... كنا مشدوهين بذلك المشهد الذي لم تتعود عليه أسماعنا من قبل، وبينما الجميع كذلك إذ دوى في الأفق صوت طغى على ما عداه وأسكت كل شيء وردت الجبال الصدى. كان صوت الرعد الذي بدا وكأنه يسقط من السماء ليضع على الاتفاقية التي كانت قد عقدت للتو ختم الرب، رب المسلمين. بعد ذلك بلحظة، وقف الجنرال بيجو ليلقي بنظرة فضول على جيش عبد القادر، لقد وجده رائعا" (44).

إن هذا الوصف الذي حرر كما يبدو بناء على الملاحظات التي كان **بونافون** يحررها يوما بيوم وربما أيضا بناء على ذكرياته عن ذلك اللقاء، قد يبدو إعجابا بالأمير وبقوته ونجاعة تنظيمه العسكري، لكنه كذلك يعبر عن حالة من الضجر من مواجهة خصم لا يريد أن يوقف حربه على الفرنسيين. ما هو تأثير التحول الذي طرأ على التصورات الفرنسية لشخصية الأمير بعد استسلامه ونفيه إلى فرنسا ثم استقراره بالشرق ودوره في حماية المسيحيين إبان مجازر دمشق، ما دور ذلك كله في تغير الصورة التقليدية للأمير التي عبر عنها كاتب مثل **دي مونتانياك** ؟ لا نستطيع الجزم بذلك غير أن الأمر لا يتعلق بكتاب بونافون وحد، بل بكل المصادر الناتجة عن عملية حث الذاكرة التي يخضع لها الشهود أنفسهم، مما يوجب التعمل بحذر مع هذه المصادر كلما تعلق الأمر بدراسة البنى الذهنية والتصورات.

يطرح علينا ذلك مشكلا حقيقيا عندما نتعامل مع تقييم بعض هذه المصادر للشخصية الأخلاقية للأمير، وهي خاصة المصادر التي وفر أسرى

---

44) نفس المصدر.

سابقون لديه مادتها الرئيسية. لقد وضعت حياة الأسر التي عاشها عدد غير قليل من العسكريين الفرنسيين في صلة مباشرة بالأمير ومكنتهم من مقارنة تصوراتهم السابقة عن عدوهم الرئيسي مع ما لمسوه مباشرة من سلوك الأمير تجاههم أثناء أسرهم. نجد أنفسنا في مواجهة نصين أدبيين أنتجا بناء على شهادات عدد من الأسرى السابقين، ولكنهما يقدمان تصورات متناقضة لسيرة الأمير مع أسراه. يجسد كتاب "أسرى دائرة عبد القادر" وكتاب "تاريخ الأسرى الفرنسيين بإفريقيا منذ الغزو" رؤيتين عاكستين، ولكن ربما مشوهتين، لتجربة الأسر. إن الطابع الأدبي ومشاركة كتاب محترفين في إعادة صياغة ذكريات الشهود يحط من القيمة التاريخية لهذه الشهادات بتوجهها، في صيغتها تلك، لإرضاء فضول غير محايد للرأي العام تجاه هذا النوع من الأدب. ينبغي مقارنة تلك الكتابات مع الكثير مما كتب حول تجربة الأسر وحول الأمير عبد القادر حتى نخرج بفكرة واضحة عن حجم المبالغات التي اساقت فيها نصوص أرنست **ألبي** على سبيل المثال.

يضع **أرنست ألبي** أسرى الأمير في مواقف غير واقعية في غالب الأحيان عندما يقدمهم لنا في وضع تحد دائم للأمير ولأكثر أعوانه سطوة، وهو أمر لا يمكن أن يتعايش مع حالة انعدام الثقة في الأعداء وفي وعودهم وإنسانيتهم التي يبثها **ألبي**، على لسان شهوده، في ثنايا كتابه. إن **ألبي** الذي لم يزر فيما يبدو الجزائر ولا عايش أحداث الحرب عن قرب، يمارس عملية تشويه إرادية لسيرة لأمير تتناقض مع معظم ما كتب عن شخصيته وعن تجربته في التعامل مع أسراه. يقدم **ألبي** أوصافا متناقضة لسلوك الأمير. فهو أحيانا قائد كفؤ وفارس شجاع وكريم الطبع وميال إلى العدل وطيب وواسع الثقافة، ولكنه في أحيان أخرى بخيل وجاهل ودموي وجبان. كل كتاب **ألبي** يدور حول قضية واحدة فيما يبدو : كيف يجب تصوير الأمير للرأي العام الفرنسي؟ وقد اختار الكاتب أن يقوم بذلك بطريقة تستجيب لحالتين متناقضتين في الرأي العام الشغوف بالتعرف على ما يجري في الجزائر منذ بداية الغزو: حالة الإعجاب بقدرات قائد استطاع الصمود أمام قوة فرنسا العاتية، وهذا في حد ذاته يمكن أن يكون مدعاة للبطولة، وحالة أخرى من سوء الفهم والتنكر والإحتقار للدوافع التي تجعل شعبا "جاهلا ومتخلفا وحقيرا" يرفض بصلف ثمار الحضارة. إن عبد القادر بالنسبة **لأرنست ألبي** فارس ماهر، ولكن الأمر يعود

في نظره لخلل سعيد في تركيبته الجسمية يسر، مصادفة، تعلمه الفروسية [45]. وهو عالم واسع الإطلاع بالنسبة للعرب، ولكنه بالمقارنة مع الفرنسيين خصوصا والأوروبيين عموما، جاهل كليا [46]، وهو مسلم زاهد ولكنه يقضي معظم وقته في عد نقوده [47]. بديهي أن كل قاؤئ سيجد فيما يكتبه **ألبي** ما يبحث عنه. لقد أمكن للأديب المنحاز أن يلاحظ بعض التحولات في سلوك العرب بدت وكأنها ستجعلهم ينتقلون من وضعية الوحشية إلى وضعية الحضارة بأسرع مما يمكن توقعه : لم يعد العرب يقطعون رؤوس أسراهم بل يحتفظون بهم لمبادلتهم، كما أنهم بدأوا يكتشفون معنى العناية بنظافة أجسامهم وبتحسين غذائهم، غير أن الفضل في ذلك إنما يعود إلى اقترابهم من الأخلاق الفرنسية : لا يمكن أن يقضوا سبع سنوات في علاقة مع المسيحيين دون ثمن" [48]، وكان الثمن هو تطوير أخلاقهم وعاداتهم بما يبعدهم يوما فيوما عن التوحش.

لا يبدو تقديم شهادات الأسرى السابقين من هذا المنطلق هدف **أرنست ألبي** الأساسي. إن ما يدفعه يبدو وطيد العلاقة مع قناعاته بالتراتب الحضاري بين الأمم المتمدنة والشعوب المتوحشة وبوضوح السبيل الذي اندفعت فيه فرنسا عندما شرعت في غزو الجزائر. لذلك فإن عبد القادر، بمقاومته المستميتة لهذا الغزو، إنما يقاوم الحضارة والمدنية والعلم والتقنية والثقافة، لذلك فقيمته بالنسبة **لألبي** تتجاوز مجرد المقاومة العسكرية لتضعه كممثل للتوحش والجهل في مواجة المدنية التي يرفع جيش الإحتلال لواءها : "لا يعتقدن أحد أن اليوم الذي سيضع فيه عبد القادر السلاح، بطريقة أو بأخرى، هو اليوم الذي ستتوقف فيه الحرب... ستتوقف الحرب لحين ثم ستعود من جديد. ذلك أن الصراع لا ينحصر فحسب بين الأمير عبد القادر وفرنسا. إن العرب لا يثورون من أجل عبد القادر، بل يقاومون غزونا من أجل الدين والقومية. إن الزعيم الذي يدافعون عنه ضد غزو أبناء يسوع هو محمد... في خضم هذه الأحداث، لا تبدو شخصية عبد القادر سوى حادث عابر ونعلم جميعا أنه عندما تتوفر الظروف المناسبة فإن ظهور الأشخاص المهيئين للإستفادة منها أمر حتمي...

---

45) ألبي، مصدر سابق، ص 108.

46) نفس المصدر، ص 18-19.

47) نفس المصدر، ص 130.

48) نفس المصدر، ص188 ، أنظر أيضا في هذا المعنى ص 19.

هل يمكن أن نتوقع أن يؤدي خروج هذا الجندي الراهب من مسرح الحرب إلى نهاية الصراع ؟ قطعا لن ينتهي لأنه غداة موته أو انسحابه سيبعث محمد في العرب قائدا جديدا" (49).

إن شهادات الأسر كما تبدو من خلال الأبطال الذين صور **أرنست ألبي** "ملحمتهم" الأسطورية وسعيهم، وهم يفتقدون لأبسط أشكال الحرية، لنقل صورة عن الحضارة الأوروبية لسجانيهم وللعب دور المبشرين (50)، تختلف إلى حد التناقض مع نص موريس **دي بونقران** الذي يقدم فيه شهادة أسير سابق في دائرة الأمير عبد القادر. يستعمل **دي بونقران** نصا أدبيا أكثر تمسكا بأصل الشهادة مما يقترحه **ألبي**، وأقل ميلا لاستعمال المحسنات الأدبية. على عكس **ألبي**، لم ينتظر **دي بونقران** أن يأتي الشهود إليه، بل نراه ينتقل للبحث عنهم (51)، ويقوم في الوقت نفسه بدور المتلقي للشهادة والمحقق في أحداثها، مصرحا بأن هدفه هو "تقديم عمل رائع لأقارب وأصدقاء ومعاصري أولئك الجنود الشجعان الذين ماتوا من أجل الوطن، عن طريق تجميع الجزئيات وتنسيق المعطيات بما يعطي في النهاية كتابا حقيقيا ودقيقيا، أؤلفه دون أفكار مسبقة حيث يمكن للجميع أن يجدوا أثر أولئك الذين أحبوهم وحيث يمكن للتأريخ الموضوعي أن ينهل منه كنبع صاف" (52).

يرسم **دي بونقران** وشاهده صورة مناقضة تماما لما يقدمه **ألبي** عن شخصية الأمير وعن سلوكه تجاه الأسرى الفرنسيين. يلخص النص نظرته للأمير بعبارة شديدة الإيجاز في معرض وصفه لملامح الأمير : "لا يمكن لأحد تعرف إليه ألا يحبه" (53). يبدو الأمير في كتاب **دي بونقران** زعيما يستحق احترام أعدائه، فقد "كان رجلا استطاع، طيلة أربعة عشر عاما ودون أن تكون له من ثروة سوى إرادته ومن سلطة سوى الكلمة أن يثير إفريقيا من أقصاها إلى أدناها وأن يجند بذلك جموعا من الأعداء ويضع على المحك السمعة

---

49) نفس المصدر، ص 371-372.

50) نفس المصدر، ص 3-4.

51) دي بونقران، مصدر سابق، أنظر التمهيد

52) نفس المصدر، الصفحة 12 من التمهيد.

53) أنظر ذلك الوصف في الصفحات من 46 إلى 48، نفس المصدر.

العريقة للجيوش الفرنسية وأن يلفت إليه أنظار العالم المذهول" [54]. إن تفهم **دي بونقران** وشاهده يتجاوز الإعجاب بالبطولة الفردية التي عبرت عنها سيرته العسكرية ليشمل أيضا الدوافع التي جعلته، وجعلت شعبه وراءه، يقاوم أعتى ما كان بإمكان فرنسا أن ترسل به إلى الجزائر من قوات، مع إرادة واضحة في الإنتصار : "سيذكر الخلف بلا شك عبد القادر في عداد الأبطال. فإذا كان الكفاح من أجل حرية بلد تعبيرا عن إحساس نبيل بالإخلاص تجاهه من جانب أبنائه، فإن من الشجاعة والبطولة أيضا أن يهاجم هؤلاء عدوا مثل فرنسا بإمكانيات شديدة الضعف كتلك التي كان العرب يتصرفون فيها في تلك الفترة (...) كان عبد القادر سليل ذلك العرق من الفرسان البواسل الذين اجتاحوا إفريقيا الشمالية (...) وكان من أولئك الوطنيين الذين لا يتحملون قسوة العبودية إلا وهم يحلمون بشمس الحرية '(...) لقد أصبح بإمكانه أن يرفع إلى جانب راية المستعبد المتمرد راية المؤمن المهدد في عقيدته، وأن يجهر مع كلمة الحرية السحرية بكلمة الدين الخالدة" [55].

تبدو تجربة الأسر كممحص للنظرة التقليدية السائدة قبل التعرف على الأمير، حيث لا يمكن تلافي أن تشهد تلك النظرة تغيرا جزئيا على أدنى تقدير، ذلك التغير الذي عبر عنه قلم **دي بونقران** وغض الطرف عنه **أرنست ألبي**. غير أن ما ساعد على ذلك كان دون شك التحولات التي شهدتها سيرة الأمير بعد استسلامه. لقد طغى البعد الإنساني على ما عداه من أبعاد في العلاقة بين الجانبين منذ نفي الأمير إلى فرنسا، وتحول الحقد عليه كزعيم للأعداء إلى نوع من التفهم والإعجاب بالأبعاد المتعددة لشخصيته. ذلك هو الإطار الذي حرر فيه نص **دي بونقران** (1860). من هذا المنطلق يمكن عكسيا فهم المنحى الذي اتخذه **أرنست ألبي** في كتابه حول الأسرى. لقد نشرت كل كتابات **ألبي** في خضم المعركة ضد قوات الأمير، تلك المعركة التي اتخذت في مراحلها الأخيرة طابعا يائسا من جانب القبائل ومسحة بالغة القسوة والدموية من قبل جيش الإحتلال، فلم يكن هناك بالتالي بد من أن تقع فيما وقعت فيه من تهويل وانحياز وعدم موضوعية. بالنسبة **لألبي** كان الأمير مسؤولا عن كل المآسي، لأنه كان ببساطة العدو الرئيسي وربما الخصم الوحيد الحقيقي لفرنسا في الجزائر.

---

54) نفس المصدر، ص 16.

55) نفس المصدر، ص 14-15.

إن كتابي **دي بونقران** و**ألبي** يتفقان في اعتبار مذبحة الأسرى الفرنسيين النقطة المحددة في الحكم على الأمير. والحقيقة أن تلك المذبحة التي راح ضحيتها حوالي المائتين والستين جنديا فرنسيا على يد قوات الأمير في الليلة الفاصلة بين 24 و25 أفريل 1846 قد أحدثت صدمة بالغة التأثير في الرأي العام الفرنسي إبان حدوثها. كان هؤلاء قد أسروا إثر هزيمة قوات الإحتلال في سيدي ابراهيم (23 سبتمبر 1845) وفي عين تموشنت (29 سبتمبر 1845) ونقلوا إلى دائرة الأمير داخل الأراضي المغربية. لم ينجح الأمير الذي أصبح مطاردا من الجيش الفرنسي ومن قوات سلطان المغرب المولى عبد الرحمان في إطلاق أية مفاوضات للتبادل مع السلطة العسكرية الفرنسية التي رفضت في نفس الوقت افتداء جنودها الأسرى، وفي الوقت نفسه كان التنسيق الفرنسي المغربي جاريا لتحريرهم بالقوة، وهو ما قد يكون دفع بعض أعوان الأمير إلى اتخاذ قرار إعدام الجنود الأسرى في غياب الأمير ودون إذنه. إن ما يهمنا هو ليس المذبحة ولا دور الأمير فيها ولكن الطريقة التي تعاملت بها تلك المصادر في تصويرها للأمير بناء على دوره المحتمل فيها. إن **دي بونقران** يصور الأمير على لسان أحد الناجين من المذبحة على أنه كان الضمانة لسلامة الأسرى وليس التهديد الأول لحياتهم، فكلما كان الأمير قرب الأسرى، كان هؤلاء يشعرون بالإطمئنان [56]. كما أن الأمير الذي أطلق سابقا ثمانين أسيرا بناء على تدخل قس فرنسي لا يمكن أن يكون في نظر الشاهد من أطلق أمر المذبحة [57]. كذلك الأمر بالنسبة لبوحامدي، مساعده الأول، الذي كان مستعدا للإنفاق على الأسرى من ثروته الخاصة لحمايتهم من القتل بدافع اقتصاد نفقات المؤونة [58]. إن براءة الأمير من المسؤولية عن تلك العملية أمر تم التأكد منه لاحقا، رغم قبول الأمير للمسؤولية السياسية عنها، وهذا الأمر يمكن التوسع فيه في بحث مستقل [59]، غير أن ما يهمنا هو بالأساس هو التشويه المتعمد الذي انساقت فيه بعض المصادر وبخاصة كتابات **أرنست ألبي** لدور الأمير. فبالنسبة

---

56) نفس المصدر، ص 48.

57) نفس المصدر، ص 89.

58) نفس المصدر.

59) أنظر المزيد من التفاصيل حول هذه القضية ودور الأمير فيها في:

Alex. Bellemare, ***Abd-el-kader. Sa vie politique et militaire***, Librairie de l. Hachette et cie, Paris, 1863.

لألبي، وبالرغم من "أن أمر المذبحة صدر دون علم الأمير(...) وأن هذا الأخير لم يعلم بحدوثها سوى بعد أشهر" [60]، فإن ذلك لا يعني براءته. إن ألبي شديد الحرص على مواجهة المعطيات التي جاءت منذ ذلك الوقت تفند الإتهامات الموجهة للأمير، ومعارضة أية تحولات في موقف الرأي العام من "زعيم التمرد" بناء على ذلك: "نعتقد أن مسعى بعض الأشخاص لإلقاء كل مسؤولية تلك العملية الإجرامية على عاتق سلطان المغرب وتبرئة عبد القادر من كل الشكوك، لا يعبر فقط عن مجرد سطحية في التفكير أو سلوك غير متبصر. إن نظريات مماثلة مضرة وغير سياسية، ذلك أن هدفها هو تشتيت الأذهان وتحويل المسألة وتوجيه حنق الراي العام ضد الأبرياء بدلا من توجيهها ضد المذنبين. في الجزائر، ما من عدو لنا سوى عبد القادر. أليس مسؤولا عن تقتيل جيوشنا وملاحقتنا بالمكر والثأر(...) في عبارة موجزة إن قاتل جنودنا هو عبد القادر، أو بالأحرى الحاج مصطفى صهر عبد القادر. إن المذنب لا يقطن فاس أو مراكش، بل هو ذلك الذي يجول في سهول الريف أو في صحارى الأنجاد" [61]. بديهي أن ذلك إنما يعبر عن موقف الكاتب السياسي من الحرب ضد الأمير، أو بالأحرى ضد الجزائريين جميعا لرفضهم تقبل الإحتلال، وليس عن موقف الشهود الذين يدعي نقل تجربتهم الإنسانية للرأي العام، وهو أمر أثبتته الأحداث لاحقا [62]. إن سيادة الإعتبارات السياسية على تعامل هذا النوع من المصادر مع صورة الأمير وإن هدف إلى استغلال حالة من الكراهية ضد الأمير في أوساط ذلك الرأي العام فإنه ليس بعيدا أيضا عن محاولة تبرئة ساحة السلطة الفرنسية التي رفضت أية مساعي لتسوية الأمر عبر الفدية أو التبادل وسعيها عوضا عن ذلك لاستعمال القوة لتحريرهم.

لم يكن هدفنا من هذا العمل البحث في السيرةالعسكرية أو السياسية للأمير أو دراسة شخصيته على نمط الدراسات البيوغرافية، بل محاولة لدراسة التمثلات السائدة لتلك الشخصية في صنف من المصادر التي يمكن اعتبارها

---

60) ألبي، مصدر سابق، ص 188.

61) نفس المصدر، ص 357-358.

62) أنظر في ألكسندر بالمار (مصدر سابق) المقابلات التي أجراها أسرى سابقون مع الأمير أثناء وجوده في فرنسا، وتعلقهم الشديد بالتعبير له عن اعترافهم بالجميل لمعاملته الحسنة لهم، واقتراح بعضهم على الأمير استعماله في خدمته. أنظر خاصة ص 401 من المصدر المذكور.

إحدى أهم الأدبيات التي صاغت فكر الراي العام الفرنسي تجاه ثورة الأمير ومقاومة الجزائريين للغزو. لقد حاولنا العودة بتلك التمثلات إلى إطارها التاريخي العام وكذلك إلى بعض جذورها في ثقافة منتجي تلك المصادر، وهي تمثلات تجد صعوبة في تفهم الدوافع التي حركت شعبا متعرضا للإحتلال والإبادة أن يقاوم مصيره، في حين لا تبدي أي حرج في التعامل مع "بطولات" الغزاة بل تجعل منها مكونا أساسيا من ضمن مكونات ملحمتها القومية.